

الملائكة

ما الملائكة ؟

السؤال :

الجواب : لقد خلق الله الملائكة وأخبرنا بذلك ووصفهم فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم . . بل وحدد أنواعا منهم .
 وأنهم : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم : ٦] .
 ومنهم الحفظة . ومنهم الرقيب على كلمات وأفعال البشر . ومنهم « المدبرات أمراء » تلك الملائكة المسخرة لأقدار أرادها .
 والملائكة غيب كالجن تماما .

إنهم أجناس تختلف فى تصويرها وشكلها ومادتها عن الإنسان .
 والملائكة غيب لا نراه ولا يد أن نؤمن بوجودهم كما أمرنا الله .
 ومن الناس من يقول : إن الملائكة هم الأسباب أو المسميات !
 لهؤلاء نقول : أتظنون أنكم تسهلون الأمر على الخالق ؟
 إن الخالق لم يسأل أحدا أن يسهل عليه أي شىء لأنه القاهر فوق عباده من الإنس والجن والملائكة .

إن الملائكة هم من خلق الله ومن جنس يختلف عن البشر .
 وعلى المؤمن أن يؤمن بوجودهم .
 فليس كل ما خلق الله يشعر به الإنسان .



ضوابط تغيير المنكر

ما ضوابط تغيير المنكر وما رأيكم فيمن يتخذون العنف سبيلاً لتغييره ؟

السؤال :

الجواب : الرسول صلى الله عليه وسلم حسم هذا الأمر في حديثه : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »^(١) .

فجعل التغيير باليد له استطاعة . فالذين يتبعون سبيل العنف لم يفهموا معنى الحديث . لأن الحديث قدر عدم الاستطاعة فقال : فإن لم يستطع .

كما أن الناس يفهمون أن التغيير بالقلب أن يقول : اللهم إن هذا منكر لا يرضيك ويسكت ، وهذا فهم خطأ . لأن التغيير بالقلب أن تمقت ذلك المنكر ، وتمقت فاعله ، وتخرجه من حيز لقاءك الإيمانية ، بمعنى أن تقاطعه ويُبعد عن المجتمع الإيمانى حتى يعلم أنه حين خالف ، عُزِلَ عن المجتمع .

ولكن المؤسف حقاً أن الناس لا يفعلون ذلك . فترى المخالف يجاهر بمخالفته ومع ذلك نجد الناس تجالسونه وتعاشرونه وتصاحبونه ، فلا يشعر بمخالفته ويتمادى فيها .

فالتغيير بالقلب أنك لا تكون منافقاً . شيء لم ترضه بقلبك فيجب أن تخضع قلبك له بأن تقاطعه . إذن . . فالرسول صلى الله عليه وسلم بين أن هناك استطاعة وهناك حدوداً . فأنما مثلاً لى ولاية على ابنى فلو فعل منكراً أضربه وأزجره وأعنفه . إنما إذا تعرضت لمجرم ومنعته بالقوة لا أدري ماذا يحدث بعد ذلك .

(١) رواه مسلم [٧٨/٤٩] .

إذن . . فعلى أن أنصح وأعظه بالكلام اللين المستميل . فلا أجمع عليه عنف إخراجه مما ألف بما يكره ، بل أخرجه مما ألف بأسلوب لينٍ وأسلوب حسن .

إذن . . فالمسألة تُبين أن لكل استطاعة حدودا . فإن استطعت باليد كما تكون في أهلك وفي أتباعك فافعل ، لكن الذى ليس لك عليه سلطان أو ولاية لا تغيره بيدك ، ولكن بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة . وإن لم تستطع ذلك فقاطعه^(١) واعزله عن حياتك الإيمانية . فإذا عزل كل مخالف أو كل منحرف عن المجتمع المسلم ، يعلم أنه ما عزل إلا لأنه خالف ، فيستقيم .



(١) من وسائل التغيير تقديم الأفضل مثل أن تجد سلعة رديئة أو خدمة تعليمية رديئة لا نستطيع تغييرها فتقدم أنت الأفضل .

لا لطاعة تورث الاستكبار

بعض الصالحين يقول : « رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيراً من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » ؟

السؤال :

الجواب : يجرب العاصي طاعة الله فيدخل في رحاب الله طالباً المغفرة والتوبة وبعض البشر من العاصين يقولون بينهم وبين أنفسهم سنفعل ذلك العمل الخير لأنه خفيف على الإنسان ، وقد يغفر الله لنا به المعاصي . وقد نجد زلة خفية لبعض من يفعلون الخير ، فيسترها الله عن عيون الناس كرمًا لفعل الخير .

ولذلك يقول بعض العارفين بالله ممن عرفوا حلاوة الإشراق والتنوير : « رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » .

كأنهم عرفوا أن الخالق أوجد الذلة للنفس البشرية حتى يعتدل ميزانها ولا تدخل في باب التيه بالعبادة .

وأوجد الخالق باب التوبة مفتوحاً حتى يدخله العاصي طالباً العفو من الله^(١) .

(١) روى الترمذى [٣٥٣٧] وابن ماجه [٤٢٥٣] ، وأحمد فى المسند [١٥٣/٢] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ . وقال الألبانى : حسن وقال الأرنؤوط : إسناده حسن . وروى مسلم [٣/٢٧٥٩] عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها .

وروى أحمد فى المسند [٤٠٣/١] عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا كان ثلث الليل الباقي يهبط إلى السماء الدنيا ثم يفتح أبواب السماء ثم يبسط يده فيقول هل من سائل يعطى سؤله ولا يزال كذلك حتى يسطم الفجر . =

ونحن فى هذا العصر نجد بعض المشرعين الوضعيين يستنكفون أن يحملوا أنفسهم على تحقيق مطلوب الدين . . هؤلاء المشرعون أنفسهم لا يستطيعون على الإطلاق الخروج من الدائرة التى فرضها الله ، وهى فتح باب التوبة . . إن التشريع الوضعى يقرر مبدأ رد الاعتبار للمجرم التائب الذى لا يعود لارتكاب جريمة ما ، ويسمون ذلك رد الاعتبار بالتقادم ، وهكذا يستطيع المجرم التائب أن يواجه المجتمع وهو غير محمّل بعبء أوزار الماضى .

كذلك أراد الله لآدم عليه السلام ، أن يوجد فى الأرض وهو غير محمل بعبء معصية نتيجة الغفلة . . وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لآدم : « إياك أن تجعل معصيتك فى بالك لتصدك عن حركة الحياة . . وخذ هذه الكلمات لتعلمها لأبنائك من بعدك حتى إذا عصى واحد منهم فإن باب التوبة مفتوح .

يقول لنا الحق سبحانه فى هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

إن الله لا يغفر أن يشرك به العباد . . كأن يجعلوا من إنسان ندا لله أو أن يعبدوا إنساناً من دون الله أو صنماً . . أما المغفرة فهى من إرادة الله لكل الذنوب إلا الشرك به سبحانه وتعالى .

ويقول أيضاً : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

إن الله يأمر رسوله بأن يبلغ الناس كافة أن العباد الذين أسرفوا على أنفسهم بكثرة المعاصى عليهم ألا يياسوا من رحمة الله وأن يعلموا أن الله يغفر الذنوب جميعاً .

ولكن الحق جل وعلا لا يترك باب التوبة مفتوحاً بدون شروط . . لا . . إن للتوبة شروطاً . . لنسمعها فى قول الله فى الآيتين التاليتين للآية السابقة

= وقال الأرنأؤوط : حديث صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبى الأحوص فمن رجال مسلم .

حين يقول الحق : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١) وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٢) [الزمر] .

إن التوبة تستدعي أن ينيب الإنسان أمره لصاحب كل أمر ، وأن يسلم الإنسان بكل جوارحه لله ، وأن يسرع الإنسان بالتوبة قبل أن يفاجأ بالعذاب في الحياة أو في الآخرة . . ولا بد أن يتبع التائب أفضل ما نزل من الخالق إلى المخلوقات وهو القرآن الكريم .
ونحن نعرف من قصة آدم أنه تاب إلى الله وأن الخالق هو التواب الرحيم .

وكان الله في حديثه عن آدم يقول لنا :

إننى تواب . . لم أقبل توبة آدم وحدها ، ولكنى أقبل توبة أي عبد منكم يا أبناء آدم .

ولنا أن نعرف أن حديث الله عن نفسه أنه « تواب » يتضمن التوجيه المباشر لكل عاص أن يسرع بالتوبة إليه وإلى تلقى رحمته وهو يغفر الذنوب جميعاً لمن يسلم قلبه وجوارحه إليه . .

إن الله لا يحب أن يظلم عباده . ولكن العباد يظلمون أنفسهم . . لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمَلِ ﴾ (١) [فصلت : ٤٦] .

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : التوبة نوعان : واجبة ومستحبة :

فالواجبة : هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور . وهذه واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم الله بذلك في كتابه وعلى السنة رسله . والمستحبة : هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات . فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين . ومن يأت بالأولى كان من الظالمين : إما الكافرين وإما الفاسقين .

والتوبة : رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه .

فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله ، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما ظن كثير من الجهال ، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله =

= العبد من القبائح كالفواحش والمظالم ، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهى عنها ، فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله ، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به ، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه ، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع ، وإما مغضوبين عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته . التوبة لابن تيمية [ص : ١٣ ، ١٤] .

وشرائط التوبة ثلاثة : الندم ، والإقلاع ، والاعتذار .

فحقيقة التوبة : هي الندم على ما سلف منه في الماضي ، والإقلاع عنه في الحال ، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل .

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة ، فإنه في ذلك الوقت يندم ، ويقنع ، ويعزم .

فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها . وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة . ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .

فأما الندم : فإنه لا تتحقق التوبة إلا به ، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به ، وإصراره عليه ، وفي المسند « الندم توبة » (١) .

وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

وأما الاعتذار : ففيه إشكال ، فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار ، فإن الاعتذار مُحاجة عن الجناية ، وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف . وفي ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عتب عليه في شيء :

وما قابلتُ عُثْبَكَ بِاعتذارٍ ولكني أقولُ كما تقولُ

وأطرقُ بابَ عَفْوِكَ بانكسارٍ ويحكمُ بيننا الخُلُقُ الجميلُ

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره وأزال عتبه عليه .

فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون في قلبه ولسانه : اللَّهُمَّ لا براءة لي من ذنب فاعتذر ، ولا قوة لي فأنتصر ، ولكني مذنب مستغفر ، اللَّهُمَّ لا عذر لي ، وإنما هو محض حَقِّك ، ومحض جنائتي ، فإن عفوت وإلا فالحق لك .

والذي ظهر لي من كلام صاحب المنازل : أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة ، وغلبة العدو ، وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن مني ما كان عن استهانة بحَقِّك ، ولا جهلاً به ، ولا إنكاراً لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك ، وإنما كان من غلبة الهوى ، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعاً في مغفرتك واتكلاً على عفوك ، وحُسن ظنِّ بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعاً في سعة حلمك ورحمته ، وغرني بك الغرور ، والنفس الأمارة بالسوء ، وسترِكَ المرخي عليّ ، وأعانني جهلي ، ولا سبيل إلى الاعتصام =

(١) رواه أحمد في المسند [١/٣٧٦، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٣] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وقال الأرنؤوط : صحيح .

= لي إلا بك ، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك ، ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار ، والاعتراف بالعجز ، والإقرار بالعبودية . فهذا من تمام التوبة ، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل ، والله يحب من عبده أن يتملق له .

وفي الحديث : « تملقوا لله » ^(١) ، وفي الصحيح : « لا أحد أحب إليه العذر من الله » وإن كان معنى ذلك الإعذار ؛ كما قال في آخر الحديث : « من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ تَاللَّيْلِ إِنَّكَ مُدْرِكُ أَشْوَاقٍ ۚ عَذَابُهُ مُّذَرٌّ ۚ ﴾ . فإنه من تمام عدله وإحسانه : أن أعذر إلى عباده ، وألا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه ، فهو أيضًا يحب من عبده أن يعتذر إليه ، ويتنصل إليه من ذنبه ، وفي الحديث : « من اعتذر إلى الله قبل الله عذره » ^(٣) . فهذا هو الاعتذار المحمود النافع .

أما الاعتذار بالقدر : فهو مخاصمة لله ، واحتجاج من العبد على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار ، وهذا فعل خصماء الله ، كما قال بعض شيوخهم في قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَنْعَامِ ۚ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

قال : أتدرون ما المراد بهذه الآية ؟

قالوا : ما المراد بها ؟

قال : إقامة أعذار الخليفة .

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه ، وإنما المراد بها : التزهيد في هذا الفاني الزاهب ، والترغيب في الباقي الدائم ، والإزراء بمن أثر هذا المزين واتبعه ، بمنزلة الصبي الذي يُزَيَّن له ما يلعب به فيهبش إليه ويتحرك له ، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين ، فلم يقل : « زينا للناس » والله تعالى يُضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ مَا كَانُوا يَمَكُورُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٣] ، وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ ثَرْغًا ذَرْفًا ۚ ﴾ [الأنعام : ١٣٧] .

وفي الحديث : « بعثت هاديًا وداعيًا ، وليس إليّ من الهداية شيء ، وبعث إبليس مغويًا ومزيّنًا ، وليس إليه من الضلالة شيء » ، ولا يناقض هذا قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . فإن إضافة التزيين إليه قضاء وقدرًا ، وإلى الشيطان تسببًا ، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زينه الشيطان لهم . فمن عقوبة السيئة : السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة : الحسنة بعدها .

والمقصود : أن الاحتجاج بالقدر منافٍ للتوبة . وليس هو من الاعتذار في شيء ، وفي بعض الآثار : « إن العبد إذا أذنب ، فقال : يا رب ، هذا قضاؤك » وأنت قدرت عليّ ، =

(١) لم أجده فيما تحت أيدينا من مراجع .

(٢) أخرجه مسلم [١٧/١٤٩٩] عن سعد بن عبادة رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو يعلى [٤٣٣٨/٣٠٢/٧] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه .

= وأنت حكمت عليّ ، وأنت كتبت عليّ . يقول الله عز وجل : وأنت علمت ، وأنت كسبت ، وأنت أردت واجتهدت ، وأنا أعاقبك عليه .
 وإذا قال : يا رب ، أنا أخطأت ، وأنا اعتديت ، وأنا فعلت ، يقول الله عز وجل : وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت ، وأنا أغفر لك .
 وإذا عمل حسنة ، فقال : يا رب أنا عملتها ، وأنا تصدقت ، وأنا صليت ، وأنا أطعمت يقول الله عز وجل : وأنا أعتك . وأنا وفقتك .
 وإذا قال : يا رب أنت أعتنتى ووفقتنى ، وأنت مننت عليّ .
 يقول الله تعالى : وأنت عملتها ، وأنت أردتها ، وأنت كسبتها .
 فالاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافي الاعتراف . فذلك منافٍ للتوبة .
 واعتذار يقرر الاعتراف ، فذلك من تمام التوبة .

مدارج السالكين [١/٢٠٢:٢٠٥] .

قال صاحب المنازل : وحقائق التوبة ثلاثة أشياء :

تعظيم الجناية .

واتهام التوبة .

وطلب أعمار الخليقة .

يريد بالحقائق : ما يتحقق به الشيء ، وتبين به صحته وثبوته ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لحارثة : « إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ »^(١) . فأما تعظيم الجناية : فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها . وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها . فإن من استهان بإضاعة فلس - مثلاً - لم يندم على إضاعته ، فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه وعظمت إضاعته عنده .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء :

تعظيم الأمر ، وتعظيم الأمر ، والتصديق بالجزاء .

وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه ، لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه ، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده في صحتها ، وأنها توبة علة وهو لا يشعر بها ، كَتَوْبَةِ أَرْبَابِ الْحَوَائِج =

(١) روى ابن أبي شيبة في المصنف كتاب [٢٧] الإيمان والرؤيا ، باب [٥] حديث رقم [٧٤] عن زبيد قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أصبحت يا حارث بن مالك ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ذلك ؟ قال : أصبحت عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت ليلي وأظلمات نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي قد أبرز للحساب ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة ، وكأني أسمع عواء أهل النار ، قال : فقال له : عبد نور الإيمان في قلبه ، إن عرفت فالزم » وانظره في ترجمة حارثة بن سراقة في أسد الغابة لابن الأثير [١/٦٥٠/٩٩٣] ، والإصابة لابن حجر العسقلاني [١/٥٩٧/١٤٨٠] .

= والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال ، لا خوفاً من ذى الجلال ، أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد فى تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى كون التوبة خوفاً من الله ، وتعظيماً له ولحرماته ، وإجلالاً له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده ، وعن البعد والطرده عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه فى الدار الآخرة .

فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون .

ومن اتهام التوبة أيضاً : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقفته ، فربما تنفس ، وربما هاج هائجه .

ومن اتهام التوبة : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أعطى منشوراً بالأمان ، فهذا من علامات التهمة .

ومن علاماتها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وألا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة . مدارج السالكين [١/٢٠٥: ٢٠٦] . التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات :

منها : أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

ومنها : أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين . فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه : ﴿ **الْأَخْسَرُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [فصلت : ٣٠] ، فهناك يزول الخوف .

ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندماً وخوفاً . وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها ، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى : ﴿ **لَا يَزَالُ بُعِثُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [التوبة : ١١٠] . قال : تقطعها بالتوبة .

ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وهذا هو تقطعه ، وهذه حقيقة التوبة ؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه ، وخوفاً من سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفاً ، تقطع فى الآخرة إذا حُقَّت الحقائق ، وعان ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين ، فلا بد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ، ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد ، وإنما هي أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة ، قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألفته بين يدى ربه طريقاً ذليلاً خاشعاً . كحال عبد جان أبى من سيده ، فأخذ فأحضر بين يديه ، ولم يجد من ينجيه من سطوته ، ولم يجد منه بدا ، ولا عنه غناء ، ولا منه مهرباً ، وعلم =



= أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته ، هذا مع حبه لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه ، وقوة سيده ، وذله ، وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها للعبد ! وما أجدى عائدها عليه ! وما أعظم جبره بها . وما أقربه بها من سيده !

فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة ، والخضوع والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين يديه ، والاستسلام له . فالله ما أحلى قوله فى هذه الحال : « أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى ، أسألك بقوتك وضعفى ، وبغناك عنى وفقرى إليك ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سوى كثير ، وليس لى سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك . أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهاج الخاضع الذليل . وأدعوك دعاء الخائف الضريب ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلل لك قلبه » .

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهضون عظمًا أنت جابره
فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة ، فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته ، وليرجع إلى تصحيحها .

فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة ، وما أسهلها باللسان والدعوى ! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأكثر الناس من المتترهين عن الكبائر الحسية والقاذورات : فى كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها ، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها ، فعندهم - من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم ، وصولة طاعاتهم ، ومنتهم على الخلق بلسان الحال ، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم ، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم ، وتوابع ذلك - ما هو أبغض إلى الله ، وأبعد لهم عن باب من كبائر أولئك .

فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ؛ ليكسر بها نفسه ، ويعرفه قدره ، ويذله بها ، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه ، فهى رحمة فى حقه ، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح ، وإقبال بقلوبهم إليه ، فهو رحمة فى حقهم ، وإلا فكلاهما على خطر .

مدارج السالكين [١/٢٠٦: ٢٠٨] .